بعد خمس سنوات ونصف من ذلك التاريخ توفى بنجامين دزرائيلي وكتب سكرتيره اللورد روتن رسالة لليدي برادفورد التي أشرنا إليها سابقا باسمها الأول، سلينا، يعلمها بوفاة الرجل الذي أحبها طوال السنوات الثماني الأخيرة من عمره. قال: «كان اليوم الأخير والساعات الأخيرة مؤلمة إذ كان تنفسه يزداد صعوبة، ولكن اللحظات الأخيرة كانت هادئة للغاية، بدا واضحا أنه لم يعد يتألم. حظي بنهاية كريمة جدا، جميلة جدا، وعندما تطلعت في وجهه الغالي في ذات اللحظة التي فارقته الروح فيها فكرت أنني لم أره أبدا منتصرا وفائزا بهذا الشكل».

علينا أن نعترف بأنه انتصر. قبض خديوي مصر الملايين الأربعة (وهي للدقة ٣,٩٧٦,٥٨٢ جنيها، إذ تبين عند إبرام العقد أن الأسهم تنقص ١٠٤٠ سهما عن العدد المقدر سابقا)، وكان على الحكومة المصرية أن تدفع للحكومة البريطانية فوائد ٥٪ على قيمة الثمن أي أقل قليلا من ٢٠٠ ألف جنيه سنويا طوال عشرين عاما بسبب مديونيتها لشركة قناة السويس واضطرارها للتنازل عن ربح الأسهم حتى عام ١٨٩٤. وُقّع العقد، واستلمت القنصلية البريطانية جميع الأسهم مودعة في سبعة صناديق كبيرة مصفحة بالزنك، حملتها سفينة بريطانية قادمة من الهند توقفت في الإسكندرية خصيصا. ركب القنصل البريطاني قطارا خاصا حمله هو والصناديق إلى الإسكندرية، ومنها انتقلت الصناديق في أمان الله والباخرة، إلى ميناء برتسموث فبلغتها ـ تبعا لعبدالرحمن الرافعي ـ في ٣١ ديسمبر من العام نفسه. وفي اليوم الأول من العام الجديد (لا يشير الرافعي إن كانت أعياد ميلاد بيضاء أي تغطي الثلوج فيها البلد أم باردة وبلا ثلوج) تسلم المسئولون الصناديق ونقلوها إلى «البنك أوف إنجلند»، حيث أودعت فيه.

لا لم نصل إلى النهاية بعد. لم نزل في البداية، بل ما زلنا على أعتاب البداية.